

## مصير خالد بعد إخضاع الشام

عاد أبو عبيدة وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان من بيت المقدس كل إلى عمله ، فأقام يزيد بدمشق ، ونزل أبو عبيدة حمص ، واستقل خالد بإمارة قنسرين . وجعل كل واحد منهم يدبر الأمر في ولايته بحزم يلطف الرفق من حدته ، وعدل بحجى الرحمة في مسالكه ، وقد أمنوا فجاءت العدو بعد أن لحقته الهزيمة في كل مكان ، وبعد أن دانت الشام للمسلمين من أقصى الجنوب بفلسطين إلى أقصى الشمال في سورية . على أن أهل الجزيرة المقيمين بين العراق والشام ، والذين دهم رجال سعد بن أبي وقاص من قبل منازل إخوانهم بهيت وتكرت والموصل وقرقيش ، لم تهدأ نفوسهم بعد الذى نزل بإخوانهم ، بل رأوا مساكنهم معرضة لغزو المسلمين إذا ظل هؤلاء يسيرون بالشام سيرتهم بالعراق ؛ يفتحون ويخضعون القبائل ، ويفرضون الجزية على من لم يدخل الإسلام . وكانوا قد يشوا من يزدجرد بعد فراره إلى الرى . لذلك كتبوا إلى هرقل أنهم مُعدون لمعاونته إذا بعث من البحر جنداً يقاتل المسلمين ويسترد منهم ما استولوا عليه . ونظر هرقل في الأمر فرأى أنه لن يصاب بشرٌ مما نزل به ، فإن يبسم له الحظ فينتصر بهؤلاء الحلفاء على عدوه ، ويقهر المسلمين في شمال الشام ، استطاعت جيوشه أن تلاحقهم إلى دمشق وإلى بيت المقدس : ويومئذ تكون المعجزة ، فيسترد قبر المسيح من العرب كما استرده من الفرس ، ثم يسير إليه مجتازاً سورية ومعه الصليب الأعظم يعيده إلى مكانه كما فعل قبل عشرين . ألا لئن تم ذلك ليكون للصليب فيه من الفضل مثل ما كان له في عهد قسطنطين ، ولينصرن الله المسيحية على يديه نصراً تعتربه على كل دين ! .

وأعاد أهل الجزيرة الكتابة إلى هرقل ، فرأى منهم عزمًا لايلين ، ورأى أكثرهم من العرب النصارى الذين استمسكوا بدينهم وآثروا الجهاد في سبيله . وكان هرقل قد زايه الروح إذ قضى أكثر من سنة بعيداً عن ميادين القتال بالشام . ثم إنه رأى

ثغوره مايزال الكثير منها حصيناً يقاوم هجمات المسلمين ، ورأى أسطوله لم يصب بأذى ، ورأى المسلمين يخافون البحر وكل ما يأتي من ناحيته ، فقوى ذلك من عزمه ومال به إلى إجابة أهل الجزيرة لما يطلبون . صحيح أن تخوم المسلمين في شمال الشام حصينة فلا يتيسر اقتحامها عليهم ، لكن هؤلاء العرب النصارى كفيلون بأن يُقضوا مضجع خالداً وأبا عبيدة إذا جاءوهم من قبل البادية . فإذا سارمده من البحر في الوقت نفسه وعرف المسلمون أنهم يهاجمون من الشرق والغرب فت ذلك في أعضادهم ، وأثار أهل الشام بهم ، وأتاح له فرصة الثأر منهم .

وكتب هرقل إلى هذه القبائل يشجعهم ويحرضهم ، ويذكر لهم أنه أمر سفنه فهي تمخر البحر تحمّل الرجال والعتاد من الإسكندرية إلى أنطاكية . وسارت هذه القبائل بكل قواتها من الجزيرة تريد حمص . وبلغت أبا عبيدة أبناء ذلك كله ، فدعا إليه خالد بن الوليد من قنسرين يشاوره . واستقر رأي الرجلين على أن تجتمع قوات المسلمين بشمال الشام لمواجهة العدو، فجمعاً بـحمص جند أنطاكية وحماة وحلب وسائر المسالحي القريبة منها . وترامت إلى هذه البلاد أبناء هرقل ومدده المقبل من البحر، وأبناء الجزيرة وسير قبائلها إلى حمص ، فتناولت أعناق أهلها وذهبوا يتساءلون : عم تسفر هذه الحملة الجديدة التي يقوم بها قيصر وحلفاؤه؟ فلما أقبلت سفن هرقل إلى أنطاكية فتحت المدينة أبوابها لجنوده ونارت بالمسلمين ، واندلع لبُ الثورة في شمال الشام كله . وألقى أبو عبيدة نفسه محصوراً في حمص يُحيط به الثائرون من كل جانب ، ويسير أعداؤه لمهاجمته مقبلين من ناحية البحر ومن ناحية البادية . ماذا عساه يصنع؟ جمع أصحابه وذكر لهم أنه كتب إلى أمير المؤمنين يستمده لمواجهة هذا الموقف الدقيق ، واستشارهم في مواجهة العدو وقتاله أو التحصن في انتظار المدد المقبل من المدينة . وانفرد خالد بن الوليد في المشورة بمناجزة العدو؛ أما سائر الأمراء فرأوا التحصن واستعجال المدد ، ورأى أبو عبيدة رأيهم وخالف خالداً ، فزاد في مناعة الحصون ، وكتب إلى عمر بما رآه أصحابه .

لم ينس عمر يوماً أن جنده بالعراق والشام قد يتعرض لمثل هذا الخطر، فيتعرض الفتح الإسلامي كله لمثل ماتعرض له يوم نوى إمارة المؤمنين . لهذا أمر بإنشاء البصرة والكوفة وجعلهما مسالحي للمسلمين لا يقيم بهما غيرهم ، ثم جعل في كل مصر من ستة أمصار أخرى أربعة آلاف فارس على تمام الأهبة لمثل هذه المفاجآت . فلما جاءه كتاب

أبي عبيدة ورأى الخطر العظيم المحيط به ، كتب في التو إلى سعد بن أبي وقاص : « أن اندب الناس مع القعقاع بن عمر ، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به . وتقدم إليهم في الجداولحة » . ونفذ سعد أمر الخليفة ليومه ، فندب القعقاع في أربعة آلاف من الفرسان المجريين فانطلقوا يغدون السير من الكوفة إلى حمص .

كان الأمر أخطر من أن يكفي لمواجهته سير القعقاع على رأس أربعة آلاف ؛ فقد بلغ عدد الذين ساروا من الجزيرة إلى حمص ثلاثين ألفاً ، غير من بعثهم هرقل على السفن إلى أنطاكية . وكان عمر يعلم أن رجاله في كل بلد من بلاد الشام قد شغلوا بأهله ، فلو أنهم تركوا هذه البلاد إلى حمص لاضطرب النظام في الشام كله . لذلك أردف أمره بسير القعقاع من الكوفة بأوامر أخرى كلها حسن التفكير وبعد النظر . فإما أغرى القبائل التي سارت من الجزيرة إلى حمص بما صنعت ما خيل إليها من بُعد منازلها عن المسلمين وغزوهم . فلو أن هذه المنازل غزيت لارتدت هذه القبائل على أعقابها ، ولخفف ذلك عن أبي عبيدة وجنوده . فليسرح سعد بن أبي وقاص سهيل بن عدى إلى الجزيرة في الجند ، « فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص » ، ولتكن الرقة مقصد سهيل ، وليسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، فإذا أخضع هذان الأميران الرقة ونصيبين ، فليسير إلى حران والرهاء ، وليسرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، ولتكن لعياض بن غم إمارة الجند كله في حرب الجزيرة . فإذا سار هؤلاء الأمراء جميعاً ذكر أهل الجزيرة ما أصاب أهل هيت وقرقيساء والموصل فلم يقاوموا .

لم يكتف عمر بهذا كله ؛ فقد قدر أن هرقل لم يندفع إلى المغامرة بإرسال جنوده على متن البحر إلى الشام بعد الذي أصابه من الهزائم فيه إلا لأنه استوثق من قوته ، واطمأن إلى قدرته على الثأر لنفسه . ولا أدل على ذلك من أنه جعل ابنه قسطنطين على رأس الجيوش التي نقلتها السفن من الإسكندرية . ولو أن هرقل نجح في هذه المغامرة لفضى ذلك على سياسة عمر أيما قضاء . ولن يرضى عمر تصور هذا الاحتمال ، ولن يألو جهداً في إفساده . لا بد إذاً من تعبئة كل قوة يستطيع تعبئتها لمواجهة هذا الخطر الداهم ، بل لا بد أن يواجهه هو بنفسه ؛ لذلك حشد ما استطاع من قوات المدينة وما حولها وسار هو على رأسها متخذاً طريق دمشق إلى ميدان القتال .

وكذلك تحركت الإمبراطورية الناشئة من شتى أرجائها للدفاع عن كيانها . سار

القعقاع بأسرع ما يستطيع غيائاً لأبي عبيدة ، وانطلق سهيل بن عدى وعبد الله بن عتبان والوليد بن عقبة وعياض بن غنم لغزو الجزيرة وتأديب أهلها ، وفصل عمر من المدينة قاصداً حمص . ودوت هذه الأنباء في العراق والشام كما دوت في شبه الجزيرة ، وبلغت أبا عبيدة وأصحابه كما بلغت قبائل الجزيرة الذين جاءوا لحصاره . واطمأن أبو عبيدة لما بلغه . أما القبائل فأيقنت أن منازلها بالجزيرة لن تُرعى لها حرمة بعد الذي صنعت ، وأنه مصيبها ما أصاب الموصل وهيت وقرقيساء من قبل ، فالتخلعت منها القلوب وآثرت الرجعة من حيث أتت ، لعل في رجعتها بعض ما يكفر عن ذنبها .

وأصبح أبو عبيدة يوماً فعلم أن القبائل تفرق أهلها مرتدين إلى بلادهم وذويهم ، وأنه لم يبق بإزائه إلا الروم جند هرقل . فدعا إليه أمراء جنده وذكر لهم أنه يرى مناجزة القوم . واغبط خالد بن الوليد ، وأشار بمفاجأتهم قبل أن يأخذوا للموقف الجديد عدته . وظن الروم حين رأوا القبائل تتخلى عنهم ، ورأوا المسلمين يخرجون من حصون حمص للقائهم أن في الأمر مكيدة دُبرت لهم فتولتهم الحيرة . وهاجمهم أبو عبيدة فلم تمنعهم حيرتهم من الشدة في لقاءه شدة تشهد بأنهم أعدوا لهذا اللقاء ما استطاعوا من قوة . فلولا انصراف القبائل عنهم لكان لهم من البأس ما يسوغ مخاوف أبي عبيدة ومخاوف عمر . لكن حيرتهم أضعفت مقاومتهم وانتهت بهم إلى الهزيمة ، ففروا قبل أن يبلغ القعقاع بن عمرو حمص ، وقبل أن يبلغ عمر الجابية<sup>(١)</sup> في طريقه إلى الشام . فلما بلغها أتى رسول أبي عبيدة بها يذكر له انتصارهم قبل ثلاثة أيام من وصول القعقاع إليهم ، ويستشيره في التيء وهل يكون لرجال القعقاع نصيب منه . واطمأن عمر ولم ير بعد الذي بلغه أن يتابع مسيرته ، فكتب إلى أمين الأمة كى يُشرك أهل الكوفة في العطاء ؛ فسيرهم لنجدته هو الذي أدخل الرعب إلى قلب عدوه فأدى ذلك إلى هزيمته ، « وجزى الله أهل الكوفة خيراً ، يحمون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار » ، ثم تحمّل راجعاً إلى المدينة .

ترى هل انسحبت جنود هرقل إلى قنسرين أو حماة أو غيرها من البلاد التي اندلع فيها لبيب الثورة لينظموها بها صفوفهم للمقاومة ، أم تعقبهم المسلمون فقصوا عليهم ؟ وماذا فعل الثوار بحلب وأنطاكية والمعاقل المنيعه حين بلغهم انتصار المسلمين بحمص ؟ لا يذكر المؤرخون عن ذلك شيئاً يصح الوقوف عنده . وأغلب الظن أن فلوك الروم التي نجت من الموت طارت إلى السفن بأنطاكية فأقلعت بهم في البحر إلى الإسكندرية أو إلى برنطية وقد

(١) قبل في رواية يرجحها ابن كثير أن عمر إنما بلغ سرغ .

تولاهم وتولى قيصر اليأس أن يعودوا إلى الشام أبداً . ولم يلبث الثائرون حين عرفوا إقلاع السفن بالجند أن هدأت ثورتهم ، فعاد خالد بن الوليد إلى قنسرين ، وعاد كل أمير في شمال الشام إلى إمارته ، مطمئنين جميعاً إلى أن الأمور سكنت إلى قرار لن يكدر صفوه من بعد مكدّر .

على أن مقام خالد بقنسرين لم يطل ؛ فقد سارت القوات التي فصلت من العراق يظلمها لواء سهيل بن عدى وعبد الله بن عتبان والوليد بن عقبة بإمرة عياض بن غم لغزو الجزيرة وتأديب أهلها . فلما بلغت منازل القبائل التي آزرت هرقل كانت هذه القبائل قد بدأت تنصرف مرتدة عن حمص . وكان سهيل بن عدى قد سلك بجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى الرقة ، فتحصن أهلها منه فحاصرهم ، فقالوا فيما بينهم : « أنتم بين أهل العراق وأهل الشام ، فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء ! » . وبعثوا إلى عياض بن غم بواسطة يريدون الصلح . وعقد لهم سهيل بن عدى الصلح عن أمر عياض لأنه أمير القتال وجعلهم من أهل الذمة . أما عبد الله بن عتبان فسلك على دجلة حتى انتهى إلى الموصل ، ومن ثم عبر النهر وسار إلى نصيبين<sup>(١)</sup> ، فلقبه أهلها بالصلح فعقد له صلح أهل الرقة . وقدم الوليد بن عقبة على بني تغلب وعرب الجزيرة فضووا إليه إلا بني إياد فإنهم ارتحلوا إلى أرض الروم . وكتب الوليد إلى عمر بالمدينة يُخبره بما صنعوا وأقام ينتظر جوابه في أمرهم . ثم إن عياضاً ضم إليه سهيلاً وعبد الله بن عتبان وسار في الناس إلى حران ، فأخذ مادونها ، حتى إذا انتهى إليها تلقاه أهلها بالإجابة إلى الصلح والجزية ، فأجراهم مجرى أهل الذمة . وكذلك فعل أهل الرهاء حين سار إليهم سهيل بن عدى . لذا دخلت الجزيرة كلها في حكم المسلمين ، فكانت أسهل البلاد وأيسرها فتحاً ؛ وبفتحتها التقى سلطان المسلمين بالعراق والشام .

ومن عجب أن يكون ذلك شأن القبائل التي كاتبته هرقل ووعدته بتأييدها . وإنما عذرها أنها رأت الروم يفرون أمام عدوهم ، فأيقنت أن هؤلاء المسلمين قد صنع لهم فلا سبيل إلى مقاومتهم ، والخير كل الخير في مصالحتهم . وإن المؤرخين البرنظيين ليدكرون أن حاكم الرهاء صالح عياضاً على أن يدفع له مائة ألف ذهباً يتقى بها غزو المسلمين ولايته وأن هرقل رفض صنيعه وعزله عن عمله ، فلم ينفذ لقيصر أمر بعد أن زال سلطانه عن هذه

(١) نصيبين هي الآن ديار بكر . ويذهب كومان ديرسفال إلى أن هيت وقرقيساء والموصل أخضعت في هذه

الغزوات . ورواية المؤرخين الثقات جميعاً أن هذه البلاد أخضعت من قبل على ما ذكرنا .

الأرجاء وصار كل أمرها للمسلمين . وكيف ينفذ له أمر وقد صار لا يستطيع أن يرفض لأمر المؤمنين مطلباً ، لأنه لا يستطيع أن يؤيد رفضه بالقوة التي تدعمه وتعززه !

لما كتب الوليد بن عقبة إلى عمر يذكر له أن عرب الجزيرة نهضوا معه إلا بنى إياد فإنهم ارتحلوا إلى أرض الروم ، كتب عمر إلى هرقل يقول : « إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتُخْرِجَنَّهُ أَوْ لِنُنِذِنَنَّ إِلَى النَّصَارَى ثُمَّ لَنُخْرِجَنَّكَ إِلَيْكَ » . ولم يجد هرقل بداً من النزول على ما أراد عمر فأخرج إياداً من أرضه ؛ فعاد أربعة آلاف منهم إلى منازلهم حتى خضعت لسلطان المسلمين ، وتفرق سائرهم فيما بين الشام والجزيرة من بلاد الروم . وإنما كتب عمر إلى هرقل هذا الكتاب حتى لا يتخذ المنهزمون أمام المسلمين أرض عدوهم ملجأً يتحصنون به ليوم ثار ، وحتى يجمع العرب كلهم في صعيد واحد تحت سلطان واحد .

لم يصنع بنو تغلب صنيع إياد . ولم يرتحلوا إلى أرض الروم ؛ لكنهم أبوا على الوليد بن عقبة حين لم يقبل منهم إلا الإسلام ، واحتكموا فيما بينهم وبينه إلى أمير المؤمنين . وكتب الوليد إلى عمر يابئهم ، فأجاز عمر رأيهم وأبى أن يفرض الوليد الإسلام عليهم ، « فإنما ذلك لجزيرة العرب لا يقبل من أحد فيها إلا الإسلام ، فدعهم على ألا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً من الإسلام » . فلما بلغهم حكم عمر رضى بعضهم أن يدخل في دين الله ، وأصر بعض على نصرانيته ، ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية . وذهب وفد منهم إلى المدينة ، وكان بينهم بعض من أسلم منهم ، فقال مسلموهم لعمر : « لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن ضعّفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء ؛ فإنهم يغضبون من ذكر الجزية ، على ألا ينصروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم » . وأصر عمر على أن يؤدوا الجزاء ، فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم » . قال عمر : « لئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسينكنم » قالوا : « فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء » . قال عمر : « أما نحن فنسميه جزاء وسموه أتم ما شئتم » . ولما رأى علي بن أبي طالب ما بلغه هذا الحوار من شدة ، قال : « يا أمير المؤمنين ! ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ قال عمر : بلى ! ورضى منهم الصدقة بدل الجزاء .

وإنما أصر نصارى بنى تغلب على ألا يؤدوا الجزية أن كان في قومهم عزّ وامتناع فكانوا يرون في أداء الجزية آية خضوع ومذلة لا تليق بهم ولا تتفق وما عرف الناس لهم من إكرام وكرامة . وكرامتهم وقوتهم هما اللتان جعلتا الوليد بن عقبة يريدنهم على الإسلام ليكون

له بهم قوة ومنعة . ولقد كان تشدد عمر معهم في أمر الجزية بادئ الرأي ثم قبول صدقتهم مضاعفة بعد مشورة علي بن أبي طالب ، سياسة منه يحمد عليها ، مع مخالفتها لموقف أبي بكر من أهل الردة ، ومخالفتها لموقفه هو من أعدائه الأقوياء في فارس والروم . فبنو تغلب عرب ، وكان عمر حريصاً على عزة العرب . ولئن أقام على نصرانيته منهم من أقام ليرجعن هؤلاء جميعاً إلى الإسلام ولو بعد حين . والرفق في هذا الموقف أبلغ . وقد دلت الأيام على حسن فراسة عمر وبعد نظره ؛ إذ نصرت تغلب المسلمين من بعد نصراً عزيزاً ، وأبليتهم على أعدائهم في مواقف كثيرة .

لم يكثف عمر بقبول الصدقة من هؤلاء النصارى ! بل رأى أن ما بينهم وبين الوليد بن عقبة من خلاف قد يدفعهم إلى إخراجه فيضعف صبره فيسطو عليهم . لذلك عزله عنهم وأمر عليهم فرات بن حيان كما يطمئن إلى استتباب الأمن واستقرار الطمأنينة في ربوعهم . تم ذلك كله في السنة السابعة عشرة من الهجرة فتم به استقرار السلطان للمسلمين بالشام من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال . والواقع أن ما بقي من سيرة عمر لا يعرف في الشام انتقاضاً ، ولا يعرف من جانب هرقل محاولة لاسترداده ، إلا ما قيل عن قيسارية . فقد سبق أن ذكرنا رواية الحصار الذي ضربته معاوية بن أبي سفيان عليها قبيل فتح بيت المقدس ، وإلى ما قيل من فتحه إياها وقتله فيها ثمانين ألفاً بلغوا بعد الهزيمة والفرار مائة ألف . على أن البلاذري ينسب إلى اختلاف الروايات في أمر هذه المدينة فيقول : « قال قائلون : فتحها معاوية ، وقال آخرون : بل فتحها عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة وهو خليفته . وقال قائلون : بل فتحها عمرو بن العاص . . . والذي اجتمع عليه العلماء أن أول الناس الذي حاصرها عمرو بن العاص ، نزل عليها في جمادى الأولى سنة ١٣ فكان يقيم عليها ما أقام ، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم فشهد أجنادين وفحل والمرج ودمشق واليرموك . ثم رجع إلى فلسطين فحاصرها بعد إيلياء ، ثم خرج إلى مصر من قيسارية . وولى يزيد بن أبي سفيان بعد أبي عبيدة فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها وتوجه إلى دمشق مطعوناً فمات بها » . والذي يخلص من هذه الروايات أن قيسارية حوصرت وطال حصارها ؛ حتى لقد قيل إنها حوصرت سبع سنين . ذلك بأنها كانت ثغراً حصيناً ومعقلاً منبع الأبراج والأسوار ، به من السكان والجنود عدد لا نظير له بأنطاكية ولا بدمشق . يقول البلاذري : إن مائة ألف كانوا يقومون كل ليلة على سورها يحرسونها . وكان سبب فتحها أن يهودياً أتى المسلمين ليلاً فدلتهم على طريق في سرب فيه الماء إلى حقو الرجل ، فدخل المسلمون المدينة

منه في الليل فكبروا ، فأراد الروم أن يهربوا من السرب فوجدوا المسلمين عليه . ويقال إن عمرو بن العاص كان فتحها في السنة السابعة عشرة ثم نقض أهلها وأمدهم الروم ، ففتحها معاوية وأقام فيها مسلحة واكل بها الحفظة . وقد وجد بها معاوية سبعمائة ألف من المرتقة وثلاثين ألفاً من السامرة وماتى ألف من اليهود ، ووجد بها ثلثمائة سوق قائمة كلها .

سبق أن قلنا : إن خالد بن الوليد لم يُقَمِّ بقنسرين طويلا . ولم نغثر في كتب الثقات على تفاصيل لغزوه بعد انصرافه من حمص إلى إمارته أكثر من أنه سار في دروب الروم مع عياض بن غنم ، وعاد من غزواته بمغانم كثيرة . وأراني في حلٍّ من القول بأن ما حدث ، إثر مجيء السفن عليها جنود الروم إلى أنطاكية ، من ثورة شمال الشام بسطان المسلمين ، لم يزل فجأة إثر هزيمة الروم بحمص ، وأن ما أشار إليه المؤرخون من انتفاض حلب وحماة وأنطاكية وغيرها من الحواضر قد اقتضى خالداً وعياض بن غنم وغيرهما من قواد المسلمين أن يجمعوه . وقد ذكر الواقدي أن حلب قاومت مقاومة عتيقة ، وأن خالد بن الوليد إنما تغلب عليها بعد حصار طويل . فلما سكنت الثورة في شمال الشام تجاوزه المسلمون إلى إرمينية ، كما كانوا قد تجاوزوه بعد غزو خالد بن الوليد مرعش وشمشاط وغيرها من قبيل ، ثم عادوا إلى الشام كما عادوا إليه أول مرة . ذلك أن عياض بن غنم مالبت حين تم له الأمر بالجزيرة أن سار صوب إرمينية يعزز تحوم المسلمين ويدخل الروع في نفوس أعدائهم . وسار خالد بن الوليد من شمال الشام إلى تلك الأرجاء حتى بلغ آمد والرهاء ، فكان في مسيرته يفتح البلاد ويستنيء المغانم ، ويلقى في القلوب الرعب<sup>(١)</sup> ، ثم عاد إلى قنسرين وقد اجتمع له من النوى شيء عظيم . لذلك انتجعه رجال من الآفاق يرجون جوائزه فلم يرضن عليهم . وكان الأشعث بن قيس فيمن انتجعه فأجازه بعشرة آلاف درهم .

تحدث الناس بفعال خالد بن الوليد بقلقية وإرمينية مُعجَبِينَ ، وذكروا بها خوارقه المجيدة وانتصاراته المعجزة بالعراق والشام ، وتحدثوا بجوائزه وأعطياته للأبطال والشعراء وبجائزته العظيمة للأشعث بن قيس ، فذكروا بها أريحية ملوك بني غسان وملوك الحيرة . ونُمي حديث الإعجاب به وخبر هذه الجائزة إلى عمر بالمدينة كما كان يُنمى إليه كل شيء من أمور عماله ، فهاج هائج على خالد ورآه لا يرجع عن غيئه . فقد بلغه من قبل أن خالداً ، إذ كان بآمد من أرض إرمينية ، دخل حمماً فتدلك بغسل فيه خمر ، فكتب إليه : « بلغني

(١) يذكر بعض المؤرخين أن خالداً كان يسير في غزواته هذه تحت لواء عياض بن غنم . ويذكر آخرون أنه كان يسير مستقلاً بنفسه وأنه لم يتأمر عليه أحد غير أبي عبيدة .

أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرّم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تُمسوها أجسادكم . وأجابه خالد : « إنا قد فتنها فعدت غسولاً غير خمر » . ولم يعجب عمر هذا الجواب ، فردّ عليه مغضباً : « إن آل المغيرة ابْتُلُوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه ! » . وكان عمر قد أمره أن يحبس ما يصيبه من المال على ضَعْفَةِ المهاجرين وها هو ذا يجعله أعطيات لذوى البأس والشرف واللسان . ألا يدل ذلك على أنه لا ينفذ ما أمره به من مراجعته في حساب المال ، وألا يعطى شاةً ولا بعيراً إلا بإذنه ، وأنه مصرٌّ على قوله يوم وجّه إليه هذا الأمر : « إما أن تدعني وعملي ، وإلا فثأنك بعملك » ؟ !

كيف يستقيم الحال وخالد يريد أن يستأثر بالسلطان ويستقل بالأمر دون حسيب أو معقّب ! بل كيف يستقيم وقد فتن خالد بالناس لإعجابهم به وإكبارهم فعالة ، فخيّل إليه أنه أصبح صاحب الأمر والنهي في الشام كله ، وأنه صار فيه ملكاً كجَبَلَةَ وآبائه من بني عَسان يُثيب ويعاقب ، ويعطى ويمنع ! ألا لئن ترك شأنه ليلبغن به الزهو يوماً ، فلا يقيم لأمر الخليفة وزناً ولا يحسب له حساباً . فلئن أراد الخليفة يومئذ نزعته من عمله ليثورن به وليجدن من الجند ومن أهل الشام أعواناً له ؛ وقد يؤيده الروم فتكون الطامة الكبرى . ويومئذ لا يلومنّ عمر إلا نفسه ، ثم ليحاسبه الله على ما قصّر في أمر المسلمين بترده وإحجامه .

هاج هائج عمر على خالد فقال : « والله ما صدقتُ الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمره فلم أنفذه ! والله لا يلي لى خالد عملاً أبداً » . وكتب إلى أبي عبيدة أن يستقدم خالداً وأن يعقله بعمامته ويتزع عنه قلنسوته حتى يعلم : أأجاز الأشعثُ بن قيس من ماله أم من إصابة أصابها ، فإن زعم أنها من إصابة فقد أقرّ بخيانتة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف . وأمره أن يعزله على كل حال ، وأن يضم إليه عمله .

تناول أبو عبيدة هذا الكتاب فتولّته الحيرة ؛ فلخالد في نفسه وفي نفوس الجند والمسلمين جميعاً منزلة أعظم المتزلة ، لكن أمير المؤمنين مُطاع ويجب تنفيذ أمره . فليدعُ خالداً إليه ، وليترك التنفيذ لرسول عمر ولموذّن النبي . وكتب إلى خالد فقدم عليه ، فلم يذكر له عن كتاب عمر شيئاً ، بل جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، ثم قام البريد الذي أوفده الخليفة يسأل خالداً : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة أصبتها ؟ ودهش خالد مما سمع ولم يجب . وكرر البريد السؤال فلم ينبسْ خالد ببنت شفة . كل ذلك وأبو عبيدة جالس على المنبر ساكت لا يقول شيئاً . فلما ألحّ البريد في السؤال وألحّ خالد في الصمت ، قام بلال

فقال : إن أمير المؤمنين أمر أن تُعقلَ بعمامتك ، وأن تنزع عنك قلنسوتك حتى تجيب عما تُسأل الآن عنه . وزادت بحالد الدهشة فلم يخرج من صمته . هناك تناول بلال قلنسوته ، ولم يديه وراء ظهره وعقله بعمامته ، وقال : « ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ » .

دهش خالد لهذا الموقف فوجم وأعياه الجواب . وهو في الحق موقف يخرج بكل إنسان عن صوابه . أليس هو موقف الاتهام الصريح بخيانة الأمانة ؟ ، فإذا فوجئ به إنسان علانية وعلى ملا من الناس جشأت نفسه وتولاه الذهول ؛ ما بالك به موجهاً إلى خالد بن الوليد وهو في أوج ظفره بأعداء الله وأعداء المسلمين !

وعلى أى نحو يوجه هذا الاتهام ؟ على نحو هو الإهانة كل الإهانة : تُضمّ يدها إلى ظهره ، وتُعقلان بعمامته ، وترفع قلنسوته عن رأسه ! ما كان أغنى أمير المؤمنين عن هذا كله ! أو لم يكن حسبه أن يدعوا خالداً إلى المدينة ما دام قد عزله عن عمله ، فإذا لقيه بها سأله عما شاء كما شاء فيما بينه وبينه ! ؟

لم تكن دهشة المسلمين الذين شهدوا هذا المنظر بأقل من دهشة خالد . ولقد تهاشم بعضهم يتساءلون بينهم : ماذا يراد بسيف الله بعد هذا الموقف الذى يُزرى بأحد الجنود ، بله القائد النابغة الذى فتح العراق والشام ودوّخ الفرس والروم ؟ ! أمن أجل عشرة آلاف من الدراهم تُعقل يدها وتُنزع قلنسوته ، وهو الذى استفاء المسلمون بيأسه مئات الألوف بل ملايينها ؟ وماذا تراه صنع بهذه العشرة الآلاف لتلحقه هذه الإهانة ؟ أفأخذها لنفسه وأنكرها على أبي عبيدة أو على الخليفة ؟ كلا ! بل أجازها الأشعث بن قيس أمير كندة صاحب البلاء العظيم فى العراق والشام . ولطالما أجزى الأشعث وأمثاله ذوو المكانة ممن شهدوا المواقع وكان لهم فيها بلاء وخطر ! ألا إنها لقسوة من أمير المؤمنين برجل بلغ من ثقة رسول الله وثقة الصديق وثقة المسلمين به أعظم مبلغ !

كان أبو عبيدة ينظر إلى الناس من مجلسه على المنبر فيرى أمارات الدهشة والإنكار بيّنة على وجوههم ، فلا يزيده ذلك إلا إمعاناً فى الصمت الذى التزمه فى هذا الشأن ، والذى أصر عليه منذ دعا خالداً إليه وأمر غيره أن ينقذ أمر عمر فيه . ولعله لم يكن أقل الحاضرين دهشة لهذا المنظر وأسفاً عليه . لقد كان يعرف أكثر من غيره ما يؤاخذ عمر خالداً به من الزهو والتسرع إلى الحرب وشدة الحرص على الاستقلال بالرأى . ولقد صرف غاية همه خلال السنوات التى انقضت من خلافة عمر ليزيل من نفس أمير المؤمنين سوء رأيه فى خالد وشدة برمه به . وقد بلغ من ذلك أن حمل عمر على إطراء خالد إثر قنسرين

وما أحرزه ابن الوليد من النصر المؤزر فيها . أفذهب كل جهده هباء ! فلم تكن صيحة عمر يومئذ : « أمر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال مني ! » إلا صيحة إعجاب بفعلة عظيمة جُزى خالد عنها بإمارة قنسرين ، ثم ظل مع ذلك برماً به ! إن يكن ذلك فهو عجب ، وأعجب منه أن يحيى الأمر بعزل خالد في أوج مجده ، والفرس والروم والعرب والمسلمون يتحدثون جميعاً بفعاله ، ويضاطئون الرءوس إكباراً لعظمته وإجلالاً لعبقريته ! كان ذلك شأن أبي عبيدة وشأن جموع المسلمين شهود هذا المنظر ، فماذا كان شأن خالد نفسه ؟ أترانا نستطيع أن نصور ما كان يدور تلك الساعة بخَلده ، وما كانت تختلج به جوارحه ؟ ! إن ألفاظ الدهشة والألم والكبرياء الجريح والغيظ المكظوم والثورة المكبوتة لتضيق منفردة ومجتمعة عن أن تصف ما كانت تضطرب به في هذه الساعة نفس رجل لم يطأطئ يوماً رأسه ولم يعرف الذلة حياته ، بل كان في جاهليته وفي إسلامه مثال الأنفة والكرامة والعزة ، وكان البطل المُعلم ، كم جدل سيفه رءوس الأعره ، والقائد القاهر عنت لقوة بأسه العروش والممالك . أتراه اليوم يقيد بعمامته وكم قيد بالسلاسل ألوف الأسرى ! أتراه يتهم بخيانة المسلمين في أموالهم وهو الذي أعز الله به الإسلام والمسلمين ! بالسخرية القدر ! أما كان خيراً له أن يصرع في ميدان البطولة والشرف من أن يجاء به إلى موقف الخونة الأندال فيصرع شرقه وتهدر بطولته !

ولكن كيف له أن يخرج من هذا الموقف المهين ؟ فهذا بلال يسأله : أمن ماله أم من إصابة أصابها أجاز الأشعث بعشرة آلاف ؟ وبلال لن يفك طائعاً عقاله حتى يجيب . أفيأزم الصمت فيطول به هذا المنظر الزرى ؟ أم يكسر عقاله بيديه ويضع على رأسه قلنسوته وينظر إلى الحاضرين جميعاً تلك النظرة الفاتكة التي عرفها خصومه وأصدقائه فيقول لهم : لا جواب عندي وليفعل عمر بعد ذلك ما بدا له ؟ لكنه جندي من جنود المؤمنين ، وعمر أمير المؤمنين ، وهو الذي قضى بسيفه على المرتدين يوم ثاروا ويحاولون أن ينازعوا أبا بكر إمارته . يثور هو بعمر فينازعه حقوق إمارته ؟ كلا ! إنه لأعظم إيماناً بالله من أن يثور بمن ولاة المؤمنون إمارتهم . لذلك لم يزد حين كرر بلال سؤاله : أمن مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ، على أن أجاب : بل من مالى !

ضحج المسلمون فرحاً حين سمعوا هذه الكلمة تتنفس عنها شفتا خالد ، ونخيل إلى كثيرين أن كل شيء قد انتهى ، وأنه سيعود إلى إمارته بقنسرين كما كان ، ثم ينسى الزمان وتُنسى فعاله ما حدث . وزادهم اطمئناناً إلى ذلك أن بلالاً لم يلبث حين سمع كلمة خالد أن أطلقه

وأعاد قنصوته ثم عممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخّم ونخدم موالينا » .  
 وخرج خالد وخرج الناس من هذا المجلس ، يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويختلف بعضهم مع بعض : يرى قوم أن أمير المؤمنين على حق ، فهو لم يحاسب خالداً إلا كما يحاسب غيره من عماله ، ويرى آخرون أن خالداً خير أمير لجند المسلمين وأكثرهم نصراً ، فمن حقه يوم توزن أخطاؤه أن توزن معها جلائل أعماله ، ومن حقه إذا أراد عمر محاسبته أن يدعوه إليه وأن يحاسبه بنفسه وألا يقفه موقف متهم آثم بين جند يقدرونه ، ويقدمونه .  
 وتعبّس لخالد قوم أثارت إهانته نفوسهم ، فذهبوا يذكرون مواقف عمر منه في عهد أبي بكر وعزله إياه عن إمارة الجند يوم استخلف ، ويزعمون أن أمير المؤمنين إنما عرض خالداً للإهانة غيراً منه لتعلق الناس به ومحبتهم له ؛ فهي المنافسة حركت ترات قديمة وليس فيها من العدل شيء .

أما خالد فلم تزياله دهشته بعد هذا المجلس ، بل جعل يسائل نفسه وقد تولته الحيرة : ماذا أراد عمر به ؟ فليس طبعياً أن يكتبني بإجابته أنه أجاز الأشعث من ماله ، وهو لابد قد كتب لأبي عبيدة بأكثر مما حدث . ولو أنه لم يقصد إلى أكثر من العلم بمصدر العشرة الآلاف لكفاه أن يسأل أبو عبيدة خالداً وأن يبلغ أمير المؤمنين جوابه . فأما أن يقفه بين الناس هذا الموقف المهين ، فلأمر له ما وراءه . وهذا الأمر خطير لا ريب ، تشهد بذلك حيرة أبي عبيدة حيرة ألزمته الصمت . أفيستأله خالد عنه فيخرجه من حيرته ويقف هو على جليّة الخبر؟ تحدث في هذا إلى بعض خلصائه ، فذكروا له أن الناس يتناقلون بينهم أنه يذكرون المال الذي أجاز به الأشعث من إصابة أصابها فلن يناله سوء وسيرده أبو عبيدة إلى عمله . أتراه يلتقي أبا عبيدة فيسّر إليه بما يشاء عمر حتى يعود إلى قنسرين أميراً كما كان ؟ ! تردد في هذا الأمر بعد أن راودته عنه نفسه . فهو إن يفعل فيعرف الناس تنهدم في أنفسهم كرامته ، وتنهدم معها ثقتهم به . لذلك ذهب إلى أخته فاطمة بنت الوليد يستشيرها ، فقالت له : « والله لا يحبك عمر أبداً ، وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك » وأقر خالد رأيها وقبل رأسها وقال لها : صدقت ، وأقام ينتظر الأيام وما تكشف عنه .

بينما كان ذلك يجري بحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدّم خالد عليه معزولا عن عمله . فلم يدرك قط بحلده أن يحجم أبو عبيدة عن تبليغ خالد أمر عزله أو أن يدع خالداً يتولى من الشئون ما لم يبق له بعد العزل أن يتولاه . فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذي كان ، وأدرك أن أبا عبيدة في لينه وتؤدته وتواضعه قد مرما ينزل بنفس

خالد من الهم إذ يعرف المصير الذى أراد له أمير المؤمنين ، وما ينشأ عن ذلك من قلق الجند والمسلمين فى وقت ما أحوج أبا عبيدة فيه إلى اتقاء كل قلق وكل فتنة . أترى أمين الأمة توقع أن يعدل عمر عن أمره ، فإذا سكت الأيام من جماح ثورته كتب إليه برد خالد إلى عمله ، ولذا سكت وصبر حتى تمر العاصفة فلا يرى أحد لها أثراً ؟ دار بنفس أمير المؤمنين أن يكون هذا الخاطر قد مرّ بخالد أبي عبيدة فلم يطق أن تقوم فى نفسه ظنة بأناته وبسداد رأيه ومضاء عزمته ، فكتب إلى خالد يستقدمه ويبلغه الأمر الذى أحجم أبو عبيدة عن أن يبلغه له . فلما تناول خالد كتابه ثارت نفسه ، ورأى فى صنيع أبي عبيدة إشفاقاً عليه ، وهو رجل يزدري الإشفاق وينكره . لذلك ذهب إلى أمين الأمة تضطرب نفسه بين محبته والغضب منه ، وقال له . « رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ ! كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ! » . وأجابه أبو عبيدة فى مودة وعطف : « والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدءاً . وقد علمت أن ذلك يروعك » .

لم يبق لخالد إلا أن يرجع إلى المدينة معزولاً يلقى أمير المؤمنين . فخرج يريد قنسرين وثورة نفسه على أشدها ، والغیظ يكاد يفرى مهجته . أذلك جزاؤه عن كل ما قدّم ! وهل أحنى عمر فى نفسه ترته القديمة عليه طيلة هذه السنين ليستخدمه ما كان بحاجة إلى قوة ساعده وعبقريّة قيادته ، فلما رأى القدرة على الاستغناء عنه تلمس له هنة فلم يجد ، فتخذ من قصة الأشعث وجائزته حجة يقيم عليها هذه المسرحية ليعزله عن عمله بعد أن يهدر كرامته ويمرغ فى التراب أمام الناس عزته ؟ ! ياله من حاقد لا ينسى حقه ! ولعل هذا المحقد كان يزداد ضراماً كلما رفع الحظ نجم خالد فيجعله أكثر علواً وسمواً . ولو أنه عزله عن كل عمله يوم استخلف لكان له من العذر أنه أشار على أبي بكر بأمر فلم ينفذه ، فلما تولى هو مكانه نفّذه . فأما أن يدعه أربع سنوات يخوض المعارك ويدوخ الأقران ويقهر الجيوش ، فيخضع دمشق ويظهر الأردن ، ويستولى على حمص ، ويأخذ قنسرين عنوة ، ويردّ حلب إلى الطاعة ، ويطردهرقل من سورية ، ويتخطى قلقية إلى إرمينية ، ويصل بين الفتحين فى العراق والشام ، ثم يعزله بعد ذلك كله بتهمة الخيانة أو السرف ، فذلك الغدر الذى لا طاقة لخالد باحتماله ، والذى لا عذر عنه من شدة عمر بسائر عماله . فلم يأثم خالد ولم يرتكب نُكراً . وأين ثراؤه على عظيم بلائه ! وأين ما صنعوا مما صنع ! إنهم أولو فضل لا ريب . وانتصار ابن أبي وقاص بالقادسية وفتح المدائن ، وطرده يزدجرد إلى الرى ، من أعظم أعمال البطولة . وفتح ابن العاص بيت المقدس نصر أكبر النصر . لكن خالداً

صاحب الفضل الأول في فتح العراق وفتح الشام . وفتحهما هو الذي دَوَّخَ كَسْرَى ودَوَّخَ قيصر ، وهو الذي فتح الباب واسعاً لمسيرة المسلمين بعده إلى ما شاءوا من الآفاق . أو لو كانت جائزة الأشعث سيئة فأين قوله تعالى : ( إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ) ! ؟ فليكن جزاء خالد عند الله ! والله من بعدُ حسيب عمر ورفيقه !

كانت هذه الخواطر تدور بنفس خالد وهو في طريقه بين حمص وقنسرين ، فكان يفضي بها إلى بعض خلصائه فيهونون عليه الأمر ويدكرونه بقوله تعالى : ( وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غُدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تُمُوتُ ) ، وبقوله : ( لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ) ويجيبهم خالد ومس الإهانة يحز في نفسه : « إن عمر ولأني الشام حتى إذا صارت بُثِّيَّة<sup>(١)</sup> وعسلاً عزلتني » . فلما بلغ قنسرين - كظم غيظته ، وتحمل وخطب أهل عمله ، وذكر مجيد فعالهم معه ، ولم يذكر لهم عمر بسوء ، ثم ودعهم وعاد بأهله ومتاعه إلى حمص ، فخطب أهلها وودعهم ، وفصل عنهم منصرفاً إلى المدينة .

فلما بلغها ولقي أصحابه بها ألنى أمر عمر فيه وما أصابه من مهانة حين تنفيذه قد سبقه إليهم ، ورأى منهم متعصبين له ناقمين من عمر ، فتجدت إليهم بأعماله ، وذكر لهم إخلاصه لله وللدين الذي أوحاه الله إلى رسوله ، وقص عليهم ما استفاء المسلمون على يديه ، والقليل الذي اختص هو به من هذا النعم ، فزادهم ذلك له تعصباً ، ومن عمر نعمة . ثم إنه لقي عمر فقال له : « لقد شكوتك إلى المسلمين . وبالله إنك في أمرى غير مجمل يا عمر ! » . ولم يجد الخليفة موضعاً للين يمكن أن يساء به تفسير أمره ، فقال لخالد ولا يزال يتهمه : « فأين هذا الثراء ! من أين هذا اليسار الذي تجيز منه عشرة آلاف ؟ » ، وجعل يكرر عليه السؤال كلما رآه . فلما ضاق به خالد قال له : « من الأنفال والسُّهُمان ، ما زاد على الستين ألفاً فهو لك<sup>(٢)</sup> » وقوم عمر عروض خالد بثمانين ألف درهم ترك له منها ستين ألفاً وأخذ العشرين الزائدة فأدخلها بيت المال .

وتحدثت قوم إلى عمر في أمر خالد وما صنع به ، ورأوا أنه قسا عليه وأن خالداً جدير بالكرامة ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين لو رددت على خالد ماله ! لكن عمر كان لا يزال على سوء رأيه في سيف الله ولا يزال يتهمه . لذلك أجاب الذين تحدثوا إليه : إنما أنا تاجر

(١) بثنية - حنطة منسوبة إلى البنية بناحية دمشق . أو هي الزبدة ، أى صارت كأنها زبد وعسل .

(٢) روى بعض الروايات ستين ألفاً في أيام أبي بكر وما زاد عليها في أيامك . فإن شئت فهي لك .

للمسلمين . والله لا أردّه عليه أبداً (١) ! وأنكر قوم هذه الشدة من عمر ، ورأوا فيها بمن المبالغة مالا يفسره إلا شدة ضيغته على خالد وعظيم حرصه على النيل منه . فما ثمانون ألف درهم قيمتها دون السبعة الآلاف من الدنانير لرجل غزاوسى واستفاء من المرتدين ومن العراق ومن الشام ست سنوات تباعاً ما قيمته الملايين ! وهذا الضغن يبدو في قول الطبرى بعد أن روى رفض عمر أن يرده إلى خالد ماله ، « فكأن عمر يرى أنه اشتق من خالد حين صنع به ذلك » .

ولعل عمر إنما قسا على خالد وبالغ في القسوة عليه بعد عودته إلى المدينة معزولاً ، لأنه رأى جماعة من المتعصبين لخالد يحاولون إثارة الفتنة وأن يميشوا بين الناس بالفساد . فلو أنه أظهر اللين لظنّ قوم لبينه ضعفاً ، ولأيقنوا أنه عزل خالداً في غير إثم ، ولجراً ذلك على الشرّ وشجّع عوامل القلق . ولم يغب ذلك عن فطنة خالد ولم تفته مرامى أمير المؤمنين فيه . فقد كان يرى عمر إذا خلا إليه كان الرقة معه واللطف به ، فإذا تحدّث إليه قوم في الأمر كان ما رأيت بأساً وشدة عاتب خالد عمر يوماً في خلوة وأعاد عليه أنه كان في أمره غير مجملٍ ، فقال عمر له : « يا خالد ! والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً » . وكفت هذه الكلمة خالداً فهدأت من ثورة نفسه وجعلته يرده الذين حاولوا تحريضه على القيام مع خصوم عمر في الثورة به بقوله : أما وعمر حتى فلا ! وكيف لخالد أن يثور بأمره لأمر أصدده ، وهو جندى يعرف النظام ويؤمن به ، وهو مسلم حسن الإسلام حريص على أن ينتصر دين الحق على يديه أو على يدي غيره ! لذا سكن كارهاً إلى حياة لا ترضاهما نفسه ، حياة الجندى البطل يرى ميادين القتال مفتوحة أمامه ، وهو مبعده عنها لا يستطيع خوض غمارها لأن أميره عزله وأقصاه . وحسبك لتقدر ماحز ذلك في نفسه أن تذكر قوله ، حين أقام بالحيرة سنة لا يقا تل الفرس امتثالاً لأمر أبي بكر : « ألا إنها لسنةٌ كأنها سنة نساء » .

واطمأن عمر إذ برت يمينه ألا يلى له خالد عملاً أبداً ثم لم تثر لعزل خالد عاصفة ، ولم يمالى خالد أحداً على إثارتها ، فقلّب جانب البر فيه جانب الشدة والبأس ، فأذاع في الأمصار : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

أفتعبر هذه الإذاعة تعبيراً صادقاً عن رأى عمر في خالد ، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل

(١) وفي رواية أنه رد عليه كل ما أخذه منه .

لم يرتكب إثم الخيانة ولا إثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة الآلاف؟ أم هي إذاعة سياسية قصد بها ابن الخطاب إلى تسكين الخواطر التي ثارت لما أصاب سيف الله ، تعصباً له وإعجاباً به ، وخشية أن يجرى عمر في سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظنة في أمر بُناة الإمبراطورية الناشئة؟ أغلب الظن أنها كانت إذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أمر أوشك حين وقوعه أن يحدث حدثاً . وآية ذلك أن خالد مات بعد أربع سنوات من عزله ، ولم يترك من حطام الدنيا غير فرسه وغلماحه وسلاحه ، فلما عرف عمر ذلك من أمره حزن وقال ، « يرحم الله أبا سليمان ! كان على غير ماظنناه به » . إذاً لقد قامت بنفس عمر ظنة في خيانة خالد أو في إسرافه كانت سبب سخطه عليه وعزله إياه . وخطب الناس بالجائية يوماً فقال : « إني أعتذر إليكم عن عزل خالد بن الوليد . فإني أمرته أن يجبس هذا المال على ضعفه المهاجرين ، فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة » . لم تكن فتنة الناس بخالد هي إذاً وحدها التي أدت إلى عزله مخافة أن يركلوا إليه ويتلوا به ويتعرضوا للفتنة بسببه ، وليعلموا أن الله هو الصانع ، بل كانت في نفس عمر سخطة على خالد لأسباب كانت فتنة الناس بسيف الله بعضها أو كانت أعظمها .

لم يسكن الناس لإذاعة عمر ولم يروها مسوغة عزل خالد ، بل ظل منهم كثيرون وفي نفوسهم على عمر موجدة لهذا العزل أي موجدة . لما خطب بالجائية يعتذر جابهه أبو عمرو ابن حفص بن المغيرة بكلام يقول فيه : « والله ما أعذرت يا عمر ! ولقد نزعنا عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لواء رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعمدنا سيفاً سأل الله . ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم ! » . وأجابه عمر : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب في ابن عمك » .

عاش خالد أربع سنوات بعد عزله بعيداً عن ميادين فخره ومجده ، يحزّ الهم في قلبه أن يرى إخوانه وبنى وطنه يقتحمون فلسطين إلى مصر والعراق إلى فارس ، وهو مقيم في بيته ، وسيفه في غمده لا يجرده لنصر أو شهادة ، ولا يديه مشهوراً أمام الأبطال يهز قلوب العدو هزاً ، ويحصد رقابهم حصداً . أفما كان حسبه خلال هذه السنوات أن يستمتع بهذا المجد انعقد له لوائه ، وتكلل بغاره جيئه ؟ !

كلا ! فما المجد لرجل لا يزال قديراً على أن يرفع صرحه ويعلى بناءه ! إنما يسكن إلى مجد بلغه من يقعد به الجهد عن أن يسمو من مراتبه إلى أعظم مما بلغ . وكان خالد لا يزال قديراً أن يقتحم مراتب المجد جميعاً ، فيفتح من أرض الروم أضعاف ما فتح ،

ويبلغ عاصمة قيصر كما بلغ سعد بن أبي وقاص عاصمة كسرى . أما وعمر قد ألزمه عُقر داره ، فكسر سيفه وهَدَّ ركنه ، فما أطول أيامه وأشدُّ ألمه ! وقد اخترم المم حياتَه فمات بعد هذه السنوات المريرة (١) وهو يقول : « لقد طلبت القتل في مظانِّه فلم يُقدِّر لي إلا أن أموت على فراشي » . وفي الرواية المشهورة أن خالداً بكى حين حضرته الوفاة وقال : « لقد حضرتُ كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو طعنةٌ برمح ، أو رميةٌ بسهم ، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء ! » .

حزن المسلمون لموت خالد أشد الحزن ، وكان عمر بن الخطاب من أشدهم حزناً .  
رووا أنه سمع أمه تندبه وتقول :

أنت خيرٌ من ألفٍ ألفٍ من القوم إذا ما كَبَّتْ وجوهُ الرجالِ  
فقال « صدقت والله إن كان كذلك ! » وكان عمر يني عن الندب على الميت وبكائه حتى لقد شئت النسوة اللاتي اجتمعن ببيت عائشة يندبن أباهما أبا بكر . فلما اجتمع نساء المدينة يبكين خالداً لم يعرض عمر لهن ولم يعترض عليهن فقيل له : ألا تسمع ! ألا تنهين (٢) : فقال : « وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نَقْعٌ أو لَقْلَقَةٌ (٣) . على مثله تبكي البواكي ! » . ودخل هشام بن البَحْرِيِّ في ناس من بني مخزوم على عمر بن الخطاب فقال : يا هشام أنشدني شعرك في خالد ، فأنشده أجدود شعره ، فلما فرغ من الإنشاد قال عمر : « قصَّرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله ، إنه كان ليحب الشرف وأهله ، وإن كان الشامت به متعرضاً لمقت الله » . وجرى ذكر خالد يوماً فاسترجع عمر وقال : « كان والله سدَّاداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة » ، فقال له علي : « فلم عزلته ؟ » قال : « ندمت على ما كان مني ! » . ويروى أن عمر كان غائباً يحج حين مات خالد ، وأنه كان قد عزم على توليته بعد أن يرجع من الحج ، فلما

(١) المشهور أنه مات سنة إحدى وعشرين بقرية على ميل من حمص . وأصحاب هذه الرواية يذكرون أن خالداً قدم المدينة بعد ما عزله عمر ، وأنه اعتمر ثم رجع إلى الشام ، فلم يزل بها حتى مات وأن عمر رأى حجاً يصلون بمسجد قباء عرف أنهم نزلوا حمص بالشام ، فسألهم عن أخبارها فقالوا : مات خالد بن الوليد . ويجري رواية بأنه مات بالمدينة ، وأصحابها يذكرون أن خالداً ذهب من الشام إلى المدينة زائراً أمه ، فلما كان خارجاً منها اشتكى فقال لأمه وكانت تصحبه : احذروني إلى مهاجري ، فقدمت به المدينة ومرضته حتى مات بها .

(٢) وفي رواية أن عمر قيل له : إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه ، وهن خلفاء أن يسمعك بعض

ما تكره ، فأصل إليهن فانهن .

(٣) أراد الصياح والجلبة عند الموت .

رجع وجده قد مات . وطبيعي أن هذه الرواية إن صحت لا تستند إلى أكثر من قول نسب إلى عمر أو نقل عنه بعد وفاة خالد بن الوليد .

أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قريش يتدبنه ثم أظهر الندم على عزله وقال فيه كل ما قاله ؟ أم اقتضته مروءته أن يكون مجملًا مع ابن خاله في مماته ، ولم يكن مجملًا معه في حياته ، فترك النسوة يبكين لعل في البكاء ما يخفف لوعتهن ، وقال ما قال يعزى به بنى خالد وأهله ؟ الله أعلم بالسرائر . ونحن بعد إزاء روايات مضطربة عن هذا الموقف من مواقف عمر ، يتعذر علينا أن نقطع أيها الصحيح وأيها الموضوع .

وإن يصدق حزن عمر فلا عجب والموت يسمو بمن مات إلى مقام السيرة المبرأة عن الشماتة والحقده ، فللأحياء منها المثل والعبرة . ولقد كان لعمر من قوة ثقته وشدة بأسه وعظيم إيمانه وعدله ، وبالغ رفته ورحمته ، وما بينه وبين خالد من صلة الرحم ، ما يدعوه للحزن عليه والأسى لمصاب أهله فيه . وكيف لا يحزن وعلى مثل خالد تبكي البواكي ! بل كيف لا يحزن ولا يزال اسم خالد يدوي في الآفاق كما لا يزال اسم عمر يدوي فيها ، وخالد أعظم بناء الإمبرطورية الإسلامية ، وعمر أعظم من وطد ركبتها ووجه سياستها !

هذه قصة خالد وعمر . وقد وقف غير واحد من المؤرخين عندها ، ونصبوا أنفسهم منصب الحكم بين الرجلين ليقولوا : أظلم عمر خالدًا أم لم يظلمه حين عزله . وكثيرون يتعصبون لخالد ويقفون في صفه ويرون أن عمر لم ينصفه . فلو أن قصة الأشعث بن قيس صحّت على أسوأ وجهيها وكان خالد قد أجازه من إصابة أصابها ، لمّا كفت في رأيهم سبباً لعزله . صحيح أن عمر كان شديدًا في محاسبة عماله ، وأنه كان يسألهم عما كسبوا من مال في ولاياتهم ، ويقبض منهم ما لعلهم كسبوه بسببها . لكنه لم يعزل كل من وجّه إليه هذه التهمة ، بل لقد وجّهها إلى عمرو بن العاص وهو على مصر غير مرة ثم لم يعزله . ولم يكن أحد من ولاة عمر وعماله كخالد بأسًا وأيدًا ، ولم يكن لواحد منهم مثل عبقريته في القيادة وإقدامه في الحرب . فليس من الإنصاف أن يشتد عمر في مؤاخذته ما لم يشتد في مؤاخذتهم . أما الذين يتعصبون لعمر ويقفون في صفه ، ويرون أنه لم يظلم خالدًا حين عزله ، فيذكرون أن جائزة الأشعث لم تكن وحدها سبب عزله ، وإنما كانت بعض المظاهر لزهو خالد وخروجه على أمر الخليفة . فقد أمره ألا يتصرف في النيء إلا بعد مراجعته فلم يفعل ، وأن يحبسه على ضعفة المهاجرين فجعله لذوي الشرف واللسان . لذلك خشى

عمر أن يُفْتَنَّ خالد بالناس كما فتنوا به ، فيكون الخطر على الدولة في بقائه ، كما خشى أن يظن الناس أن خالداً أصبح ضرورة لا غنى عنها لانتصار جيوش المسلمين ، فتصغر أقدار القادة دونه ، وتَعْظَم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، وذلك شر إن أصاب الدولة وتواصل فيها فسد أمرها . ولا سبيل إلى استئصال هذا الشر إلا بعزل مصدره ، ولو في غير جريرة . فإذا رأى الناس جيوش الدولة لا تزال من بعد مظفرة ، قرّت عقيدتهم بالله وثقتهم بقوادهم وساستهم ، فكان للدولة ولدين الله بذلك كسب لا يقاس عزل رجل بجانبه ، ولو كان هذا الرجل خالد بن الوليد .

لم ير كثيرون أن يقفوا من خالد وعمر موقف الحكم إكباراً لهما عن مقام القضاء ، والاتهام ، واقتناعاً بأن ما انتهى إلينا من تفاصيل الحوادث وملابساتها فيه من القصور والاضطراب ما يردنا عن الحكم ، وإن أسفوا مع ذلك على ما حدث أشد الأسف ، فخالد وعمر رجلان قل نظيرهما في الرجال . فلو أنهما تضامنا إلى النهاية في بناء الإمبراطورية وسياستها ، لأسرع الفتح أكثر مما أسرع ، ولاتسعت رقعته أكثر مما اتسعت ، ولدخل المسلمون القسطنطينية وخالد على رأسهم ، ولأدالوا من دولة قيصر ما أدالوا من دولة كسرى ، ولكان لذلك أثره الباقي في حياة الإسلام وفي حياة العالم ، ولرأينا من هذا الأثر غير ما نرى اليوم ، ولسارت الحضارة غير سيرتها التي عرفنا .

وهذه فروض لا يدري أحد ما كان يصح منها لو لم يحدث ما حدث . وعندى أن عمر إنما عزل خالداً عن كل عمله للسبب الذي عزله من أجله عن إمارة الجند غداة خلافته . فالثقة بين الرجلين لم تكن قائمة في عهد أبي بكر ولا من قبله . وكان عمر يود لو أن أبا بكر عزل خالداً لحادث ابن نويرة أو لحادث غيره . فلما أبي الصديق أن يأخذ بظنة عمر فيه ولم يعزله ، لم يكن لعمر يوم تولى أن يفصله عن الجند كله ، فقد كانت جيوش المسلمين على اليرموك في إمرته ، وكانت ضخامة اسمه وثقة الصديق به تحولان دون عزله . لذا اكتفى برد أبي عبيدة إلى مكانه من إمارة الجند ، وأن يسير خالد تحت لوائه . فلما انتصر خالد في اليرموك وفتح دمشق ودوت فعالة في شبه الجزيرة كما دوت في العراق والشام ، ثم كانت جيوش الروم لا تزال قوية بإزاء المسلمين ، لم يكن لعمر إلا أن يحتمل ابن خاله وإن على مضض وأن يُعْجَبَ بفعاله وإن بقى على سوء رأيه فيه . فلما قرّ هرقل إلى عاصمة ملكه ثم قمع المسلمون ما حدث من الانتفاض في شمال الشام ، وحصنوا ما بينهم وبين الروم من تخوم ، وأمن عمر عودة هرقل وجنوده ، لم يبق لخالد إلا أن يكبح جماح

زهوه ؟ وأن ينزل على رأى الخليفة فى النىء وغير النىء ، كما ينزل كل عامل غيره . لكن خالداً ظل على اعتزازه بنفسه واعتداده بمقدرته ، فاستأثر بما رأى أنه من الحق لنفسه أن يستأثر به حين توزيع العطاء من غنائمه ، مخالفاً بذلك أمير المؤمنين عن رأيه ، خارجاً فيه عن سياسته . وحرك ذلك فى نفس عمر كل ما اجتمع فيها من سوء الرأى بخالد قبل حادث ابن نوية وبعده ، فكان الذى حدث من استدعاء خالد إلى حمص ليقف بين الناس موقف المتهم ، ولتُترَعَ قلنسوته ويُعقَلَ بعمامته ؛ ويُسألَ كأنه خائن للأمانة ، وليعزل بعد ذلك فيبقى بعيداً عن ميادين فخره ومجده حتى يموت على فراشه كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء !

رحم الله خالداً ورحم عمر ! لقد كانا قوتين من أضخم قوى القدر . اتسعت لهما شبه الجزيرة ما كانتا كمينتين ، فلما تفتحتا وانتشرتا ضاقت بانتشارهما ملك الفرس والروم مجتمعين ؛ فاصطدما فلم يكن بدُّ من أن تنكمش إحداهما حتى تبلغ الأخرى مدى انتشارها . وقد رضى خالد أن يكون القوة التى تنكمش ، لكى لا يودى الصدام إلى تحطيم القوتين جميعاً . ومن توفيق الله أن حانت ساعة انكماشه بعد أن اطمأن المسلمون بالشام إلى سلطان أقروه ، وعدل أقاموه ، وسياسة أحكموها .

أفقرَّ المسلمون بالشام على نحو ما قرؤوا بالعراق ، فاستأثروا فيه بمدن أقاموها كما أقاموا البصرة والكوفة ، ثم انتشروا فى سائر أرجائه ؟ كلا ! بل أقاموا بدمشق وحمص وغيرهما من المدن الكبيرة فيه ، وشجعوا القبائل التى أسلمت وكانت مقيمة بالحاضر المتصل بهذه المدن على الإقامة معهم بها ، ثم لم ينتشروا فيما وراءها . وقد يبدو هذا عجيباً ؛ ففى الشام الحدائق الغناء ، والأودية المرعة الخصب تكسوها المزارع إلى مدى الأفق ، والجبال الباسقة تجلجل هاماتها الثلوج ناصعة البياض ، والأشجار المثمرة من أعناب وتين وزيتون ، والمياه المتدفقة منحدره من السفوح المرتفعة إلى المنبسطة السهلة الواسعة . فكيف لم يجذبهم كل ذلك إليه ما جذبهم أرض العراق ! السر فى ذلك أن بالعراق من أرض البادية ومن أشجار النخيل ما استهوى نفوساً ألقت النخيل وألقت البادية . والناس أكثر ميلاً لما ألفوا واطمئنأنا إليه . ثم إن أهل العراق كانوا أسرع إلى الإسلام ؛ فكان ذلك أدعى لتوثيق الأواصر بينهم وبين أهل شبه الجزيرة . أما نصارى الشام فاستمسك أكثرهم بادئ الأمر بدينهم ، ورأوا أداء الجزية أيسر عليهم من تركه ، فظل اختلاف الدين حجاباً بينهم وبين العرب الفاتحين . على أن سياسة الحكم فى القطرين لم تختلف ، بل كانت

قائمة فيما على حماية أهل الذمة والتسوية بينهم وإن اختلفت مذاهبهم وأجناسهم ، وأن يكون المسلمون جميعاً سواء فيما فرضه عليهم الدين الجديد ، يؤدون لله حقه ، ويهبون له حياتهم راضين مطمئنين .

أدى استقرار المسلمين بالشام والعراق إلى وحدة الجنس العربي . أفما آن لعمر أن يضم هذه الإمبراطورية الناشئة في وحدة تزيدها قوة ؟ كان ذلك أكبر رجائه ، بل كان ذلك عزمه الصادق . لكن للأقدار حكماً لا يستقر أمامه عزم . وقد أرادت الأقدار أن تزداد الإمبراطورية سعة ، وأن تزداد رقعتها انفساحاً . وسرى من بعد ما ينطوي عليه حكم الأقدار في ذلك من موعظة بالغة .